الباب الأول

الدراسة النظرية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

obeikandl.com

obeikandl.com

من البداهة أن يكون تفسير كتاب الله تعالى العامل الأهم في بناء شخصية المسلم، وتثقيفه بثقافة علمية متجدّدة، ومرتبطة بالواقع الذي يعيشه ويحياه، ثقافة مؤثرة في ذلك الواقع، ومتحررة من التقليد، ومحركة للإنسان...،

هذه الحركة التفسيرية لكتاب الله تعالى تجعل من المسلم عنصرًا حيًا فاعلًا في الحياة، آمنًا على ثقافته وفكره من خطر الثقافات الواردة، أو المستوردة أو الدخيلة،...[1]

إننا من خلال الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم نلمح هنا سرًا من أسرار الإعجاز...

ونقرأ دليلًا ساطعًا على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد الديان: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ النساء: ٨٢

وإلا حدثني بربك كيف تستطيع أنت ؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعًا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه، التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعًا لها ومتحدثًا عنها سببًا بعد سبب،وداعية إثر داعية، مع اختلاف مابين هذه الدواعي، وتغاير مابين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من

(١) ينظر:ـ التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ـ زياد خليل الدغامين ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن ـ ط ١ـ ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م .

obeikandl.com

عشرين عامًا[1]وهذا ما سنحاول أن نوضحه من خلال هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول :ـ مفهوم الوحدة الموضوعية ونشأتها والمؤلفات فيها وأهميتها :

الوحدة الموضوعية ليست تفسيرًا فحسب، إنما هي مقصد وغاية يسعى الباحث إلى تحقيقها، والكشف عن جمالها وسحر بيانها، وسوف نتعرف إلى الوحدة الموضوعية ونشأتها من خلال هذا المبحث...

المطلب الأول :- مفهوم الوحدة الموضوعية :ـ

وهذا يتطلب منا تعريف الوحدة ثم الموضوعية ثم تعريف الوحدة الموضوعية اصطلاحًا.

الوحدة لغة:- الانفراد والواحد في الحقيقة، هو الشيء الذي لا جزء له البتة ثم يطلق على كل ما هو موجود[2].

ومنها:ـ وَحُدَ كَعَلِمَ وَكَرُمَ يَحِدُ وَحَادَةً ووحودة ووحودًا ووحدًا وَوُحْدةً وحِدَةً:ـ بقي مفردًا، كتوحد ووحده توحيدًا:- جعله واحدًا[3].

أما تعريف الموضوعية، فالوضع في اللغة:ـ الخفض للشيء وحطه[4]، ووضعه، يضعه بفتح ضادهما وضعًا وموضعًا ويفتح ضاده، وموضوعًا:- حَطَّهُ، وعنه: حَطَّ من قدره، وعن غريمه:- نقص مما له عليه شيئًا، والإبل وضيعة:- رعت الحمض حول الماء ولم تبرح، كأوضعت فهي واضعةٌ وواضعُ ومُوْضَعِةٌ[5].

---

(١) ينظر:ـ الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ دار السلام ـ القاهرة ـ مصر ـ ط١ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ (٢٥ـ٢٦)

(٢) المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ دارا لمعرفة ـ بيروت ـ لبنان ـ بلا تاريخ ـ (٥٣٠).

(٣)القاموس المحيط –مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي–دار إحياء التراث العربي –ط٢ ـ ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م مادة/ وحد (٣٠٦)

(٤) معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الفكر المصورة عن الطبعة المصرية ـ ١٠٩٤

(٥) القاموس المحيط ـ مجد الدين بن يعقوب الفيروزابادي ـ ـ مادة وضع. (٧١٢).

obeikandl.com

ولقد استعملت في القرآن في عدة معان منها:ـ

ـ قال تعالى:- ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] بمعنى خلقها وأوجدها.

ـ قال تعالى:- ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [2] بمعنى بني وخصص للعبادة.

والموضوع في الكتب المؤلفة " موضع العلم" ما بحث فيه عن عوارضه الذاتية، كجسم الإنسان بالنسبة لعلم الطب، واللفظ العربي بالنسبة لعلم النحو.

الوحدة الموضوعية اصطلاحًا:

أما الوحدة الموضوعية كمركب، فيمكن تعريفها بأنها:-

((اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثرًا، أو أنه لا تباين فيه ولا اختلاف بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى: (وحدة الموضوع)))[3]

ويمكن تعريف الوحدة الموضوعية:- ((بأنها التماسك العضوي، والترابط الفني الدقيق، وهو أن يكون العمل الفني متماسكًا إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة،لأن العمل الفني لا يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداءً أنّ القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية، وأن الناحية الفنية دائمًا وسيلة للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى.))[4]

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم:-

يتنوع تعريف الوحدة الموضوعية في القرآن بحسب نوعها، فمنها ما يتعلق بموضوع السور القرآنية، ومنها ما يتعلق بالسورة القرآنية الواحدة، وتعرف الوحدة الموضوعية للسور القرآنية بأنها:

---

(١) سورة الرحمن آية:١٠.

(٢) سورة آل عمرآن آية: ٩٦.

(٣) الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير-. عبدا لغفار عبدا لرحيم- المركز العربي للثقافة والعلوم- بدون تاريخ –(٢٠٤) .

(٤) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف – محمد حسن باجوده – تهامة ـ جدة ـ (١٩٨٣) ـ ص (٣٥).

obeikandl.com

(البحث عن القضايا الخاصة، التي عرض لها القرآن في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة، تتعلق بالموضوع العام، الذي نبحثه لتحقق الهدف وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.)[1]

أما الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة:- فيمكن تعريفها على النحو الآتي:- ((النظر في السورة الواحدة كوحدة مؤتلفة، تترابط أجزاؤها وتتماسك معانيها في سياق واحد، ليكون وحدة منها ذات موضوع واحد، لا تنافر بينه ولا اختلاف))[2].

ويمكن تعريفها أيضًا:-

((بأنها اجتماع أهداف السورة في تقرير موضوع محدّد، أو إبراز القضية المحورية في السورة القرآنية.)).

وبعبارة أخرى:ـ ((أن كل سورة من سور القرآن، تتناول موضوعًا معينًا، تطرحه وتعالجه وتتجه أهدافها لتقريره، وتكون به مميزة))[3].

أو يمكن تعريفها بأنها:

((التفسير الذي يتوجه فيه المفسّر إلى الكشف عن الموضوع، الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة النسج، والارتباط بأسلوبها المتميز، وخصائصها المعجزة بلوغًا إلى مقاصدها الهدائية.))[4].

المطلب الثاني:- نشأة الوحدة الموضوعية وأهم المؤلفات فيها:-

لقد بدأت الدراسات القرآنية في الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، لدى

---

(١) الوحدة الموضوعية في القرآن – محمد محمود حجازي – مطبعة المدني – القاهرة – ١٩٧٠م (٣٢-٣٤).

(٢) ينظر: نفس المرجع (٣٤).

(٣) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ـ زياد خليل الدغامين ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن ـ ط١ـ ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ـ (٢٠٥).

(٤) التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان ـ عبد الجليل عبد الرحيم ـ عمان ـ تاريخ ١٩٩٢م ـ (٣٥ـ ٣٦).

obeikandl.com

علمائنا السابقين، فهم الذين ألقوا البذور في رياض الدراسات القرآنية، واستطاع المتأخرون من خلالها إبراز الصورة فغدت أكثر وضوحًا، وأصبحت منهجًا في البحث أشد ظهورًا.

ونرى هذه البذور واضحة في كثير من كتب التفسير التي خطها علماؤنا القدامى ونذكر منهم:-

- الإمام فخر الدين الرازي[1] ت٦٠٦هـ في تفسيره" التفسير الكبير."

حيث قال بعد تفسير سورة فصلت:ـ(وكل من أنصف ولم يتعسف، علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه، صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها، كلامًا واحدا منتظمًا، نحو غرض واحد)[2]. فهو من خلال كلامه يؤكد الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، وهو بذلك يقرر فكرة الوحدة الموضوعية.

- الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي[3] ت ٧٩٠هـ في كتابه "الموافقات ":-

حيث قال:- ((إن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدًا بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعددًا في الاعتبار، بمعنى أنه نزل في قضايا متعددة، كسورة البقرة، وآل عمران،

---

(١) هو: أبو عبدالله محمد بن عمر الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب، الفقيه الشافعي، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها في تفسير القرآن الكريم ـ ومنها في علم الكلام:ـ "المطالب العالية ـ نهاية العقول ـ البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان ـ " وفي أصول الفقه "المحصول "وفي الحكمة "الملخص.....توفي يوم الاثنين ٦٠٦هـ بمدينة هره. (تهذيب سير أعلام النبلاء ـ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٢ ـ ١٤١٣هـ ـ (٣/ ١٦٦)

(٢) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ١٩٨١م ـ (٢٧/ ١٣٤)

(٣) هو:إبراهيم الشاطبي (٠٠٠ - ٧٩٠ هـ) (٠٠٠ - ١٣٨٨ م) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي الشهير بالشاطبي، (أبو اسحاق) محدث، فقيه اصولي، لغوي، مفسر.مات في شعبان من مؤلفاته: عنوان التعريف بأسرار التكليف في الأصول شرح على الخلاصة في النحو في أسفار أربعة كبار، الموافقات في الأصول والأحكام، عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، والاعتصام.(معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحاله ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١/ ١١٨)

والنساء واقرأ باسم ربك، وأشباهها، ولا علينا أنزلت السورة بكاملها دفعة واحدة، أم نزلت شيئًا بعد شيء...))[1].

فهو بهذا الكلام قد طور فكرة الإمام الرازي في الوحدة الموضوعية، وأورد كلامًا قويًا في تأصيل الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

- الإمام إبراهيم بن عمر البقاعي[2] ت ٨٨٥هـ في تفسيره "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" حيث نلاحظ فيه اهتمامه الكبير بعلم المناسبات، الذي له صلة وثيقة بالوحدة الموضوعية، وهو بذلك يتبع خطوات تقرير الوحدة الموضوعية في السورة، فكان أول ما يذكره الإمام البقاعي في

تفسيره لسور القرآن، سواء كانت مكية أم مدنية هو مقصودها العام، وغرضها الرئيس، ثم يفسر البسملة في كل سورة على حسب موضوعها، ثم يفسر آياتها بأن يأخذ أجزاء الآية جزءًا جزءًا ويربط بينها، وبعد أن ينتهي من ذلك يربط الآية كلها بالتي قبلها لتتحد معها؛ وتتصل بها، وهكذا إلى آخر السورة، وهو بذلك يتبع بعض الخطوات الإجرائية لتفسير السورة القرآنية تفسيرًا موضوعيًا متسلسلاً.

وكما نجده يقرر أن معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن، مترتبة على معرفة الغرض أو الأغراض التي سيقت لها السورة.

من خلال هذا العرض الموجز لبعض أئمة المفسرين القدماء، وجدنا لهم في أثناء تفاسيرهم الإشارة والقول بالوحدة الموضوعية، حتى أصبحت فكرة الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية أكثر وضوحًا وتأصيلًا عند المفسرين المتأخرين، فجاءت

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة ـ لأبي إسحاق الشاطبي ـ دار المعارف ـ بيروت ـ (٤/ ٤١٤ـ ٤١٥)

(٢) هو:ـ إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط - بضم الراء وتخفيف الباء - بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق.وله (عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران) أربع مجلدات(الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي- ط٥- دار العلم للملايين- بيروت -[١٩٨٠م]-(١/ ٥٦).

تفاسيرهم أكثر تعميقًا لفكرة بناء السورة على أساس من وحدة موضوعها، بل ارتكزت بعض النظريات الحديثة في تفسير سور القرآن على هذا الأساس فمثلًا:- جعل الإمام محمد عبده السورة من القرآن وحدة متناسقة، وهذا من الأسس التي قام عليها منهجه في تفسير القرآن الكريم.

وأيضًا من الذين جعلوا الوحدة الموضوعية أساسًا في تفسيرهم المعلم عبد الحميد الفراهي في تفسير " "

" نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان". وكان أكثرهم عناية بالوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم من حيث شمولية التطبيق الأستاذ "سيد قطب في تفسيره" في ظلال القرآن".

ومن الذين كان لهم أثرٌ في محاولة إدراك الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية عبد الحميد طهماز في كتابه"من موضوعات سور القرآن."

ومن الذين درسوا بعض سور القرآن دراسة موضوعية، الدكتور محمد حسن باجودة في كتابه "الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ".

والدكتور ناصر عمر في كتابه: "تفسير سورة الحجرات "، والأستاذ عبد الرحمن حبنكة في كتابه: "تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع" وهكذا توالت المؤلفات والكتب، بل وأصبح أكثر الباحثين مهتمين بهذا النوع من التفسير من حيث جعله يأخذ من المعالم والملامح، ما يوضحه ويميزه عن مناهج التفسير بل ويبرزه بينها كمنهج فريد مستقل.[1]

المطلب الثالث:- أهمية الوحدة الموضوعية:-

إن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه بعضًا في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مسوقًا لأوله، وبدا أوله

(١) مقدمة في علم التفسير ـ عبدالحي الفرماوي، - دار الكتب المصرية- ط٦ـ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م – (٥٢).

مواتيًا لآخره[1]. فنحن حين نتأمل المعاني والألفاظ والكلمات والجمل، وكيف يتم الربط بين كل ذلك، والعلاقة بين هذا الفهم والنسق القرآني المعجز، وما فيه من تركيب وتلاؤم وتجانس وانسجام، يكون من ذلك كله وحدة موضوعية في السورة الواحدة، أو السور المختلفة.

فالسورة القرآنية مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد،كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، ولا غنى عنها لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية.

ونذكر هنا أهمية الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم في الآتي:-

١ـ "أنها تلبي مطلبًا من مطالب عصرنا.

٢ـ أنها تروي ظمأ طلاب المعرفة والباحثين عن دقائق أسرار القرآن.

٣ـ أنها تضع لبنة في صرح الحديث عن إعجاز القرآن ومعجزاته.

٥ـ أنها تجيب عن تساؤلات كثيرة من جملتها موضوع فواتح السور، سواء منها المصدرة بالأحرف الهجائية أو المصدرة بما سوى ذلك.

٦ـ من خلال الوحدة الموضوعية يزداد ترجيح بعض الجوانب التي وقع فيها خلاف يقتضيه أن ترتيب سور القرآن توقيفي وليس اجتهاديًّا[2].

٧ـ معرفة طريقة القرآن الكريم في معالجة موضوعاته الجزئية.

٨ـ إنَّ التركيز على موضوع السورة ينبه إلى قضية جزئية في بناء الفرد والمجتمع.[3]

٩ـ أنها سر جديد من أسرار الإعجاز،،فالحرف الواحد من القرآن معجز في

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدا لعظيم الزرقاني ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ (١/ ٥٣).

(٢) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (١/ ٢٥).

(٣) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم والسور القرآنية ـ محمود أحمد الأطرش ـ دار الإيمان ـ دار القيمة ـ ط١ـ ٢٠٠٨م ـ (٢٠٥)

obeikandl.com

موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازًا أبديًا [١].

١٠ـ تكشف عن جمال القرآن، وسحر بيانه، وذلك بإحاطة السورة بنظرة شمولية[٢].

١١ـ يكون فيه معالجة لهذا الواقع، ومنطلق ثقافي لرؤية قرآنية شاملة ومتوازنة، يضاف إلى ذلك أن النظرة الموضوعية للسورة كاملة، ومعرفة الأغراض التي تدور حولها، يمكن أن تسهم أيضًا بتكوين المنطلق الثقافي للرؤية الشاملة.[٣]

ولأهمية هذا الاتجاه في التفسير دعا بعضهم إلى تبنّيه بوصفه المنهج المعاصر، الذي يضع المسلمين في تصور السنن الاجتماعية، وليستنبطوا من القرآن الكريم مئات الوحدات الموضوعية المترابطة بين آياته، التي توّضح لهم حركة الوجود والحياة، أو كيفية مواجهتها، وعوامل التقدم والنكوص فيها، في شمولية كونية متناسقة، لاتحدّها حدود، لأنها لا ترتبط بزمن ما، فهو خاتم الكتب السماوية خالد إلى يوم الدين.[٤]

وبهذا العرض الموجز، ندرك الأهمية العظيمة للوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

المبحث الثاني : الشبهة التي أثارها المستشرقون في الوحدة القرآنية والرد عليها :

إن كمال القرآن الكريم في وحدة آياته في السورة الواحدة، وكماله في الوحدة الجامعة التي تجمع ما بين سوره وآياته على طريقة لم يعرف لها العالم مثيلًا، ولا يمكن أن تخطر على قلب بشر.[٥]

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م ـ (١٧٤)

(٢) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ـ زياد الدغامين ـ (٢٢)

(٣) كيف نتعامل مع القرآن في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة ـ تأليف محمد الغزالي ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ (٧٣)

(٤) العقائد الإسلامية والتفسير ـ محسن عبد الحميد ـ بحث ضمن كتاب "مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات "تحرير فتحي ملكاويث ومحمد أبو سل (١٩٩٥) نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ عمان الأردن ـ (٢٤٢)

(٥) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (١/ ٢٧)

وقد حاول أعداء الإسلام من المستشرقين بث سمومهم حول الوحدة القرآنية، بإثارة الشكوك والشبهات حول القرآن الكريم، ومن شبهاتهم ما سنبينه في هذا المبحث.

المطلب الأول:- الشبهة التي أثارها المستشرقون في الوحدة القرآنية:

زعم بعض علماء أوروبا مثل دوزي وكارليل أن هناك عيبًا يؤخذ على القرآن، لأنه جاء في ترتيبه مخالفًا للكتب الوضعية، فليس له مقدمة مثلها، ولا مباحث مرتبة ذات مقاصد محددة في فصول معدودة كمباحثها، وإنما هو آيات مجتمعة ذات مقاصد، آية وعظ تتلوها آية جهاد تتبعها آية فقه بعدها قصة رسول، إلى غير هذا مما لا يجري على قاعدة الكتابة المألوفة، ولا يوافق نظام التأليف المعروف[1].

فنجد بعض المستشرقين – أعداء الإسلام منهم – وجدوا في ذلك منفذًا خالوه من الاتساع بحيث يدخل منه دسهم ومكرهم،ويكون القبول حليفه فزعموا "إن القرآن خليط متنافر وجمع غير مؤتلف ليس فيه وحدة للموضوع ولا يتبع منهج التأليف العلمي أو الفني من عرض الموضوع ومناقشته وتدوين الملاحظات واستنتاج الحقائق،بل تجد السورة تدخل في أكثر من موضوع، وتعرض الجميع عرضًا مبتسرًا سريعًا، ولا تراعي مناسبة بين محتوياتها، فهي أشبه بقولهم عسل، خمر، لبن[2].

المطلب الثاني:- الرد على هذه الشبهة:-

قام علماؤنا الأجلاء بالرد على هذه الشبهة ومنهم:- الشيخ سعيد حوى في كتابه"الأساس في التفسير" حيث يقول: ((إنَّ الوحي الإلهي في صيغته الصحيحة الوحيدة حاليًا، يتمثل بالدليل والبرهان بما أنزل الله عز وجل على محمد صلى الله

---

(١) النظم الفني في القرآن – عبدا لمتعال الصعيدي – مكتبة الآداب – المطبعة النموذجية – مصر –بلا تاريخ – (٣)

(٢) منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم – عبد الله محمود شحاته – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (٤٤) نشر الرسائل الجامعية – (٢) القاهرة ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م – (٣٦)

عليه وسلم من قرآن وحكمة، هذا القرآن الذي كانت مهمة محمد صلى الله عليه وسلم فيه البلاغ والبيان هو حجة الله على خلقه، وهو حجة الله على أن محمدًا عبده ورسوله.

هذا القرآن الذي هذا شأنه، لابد من إبراز كمال الحجيّة فيه، وما أكثر الحجج وأكبرها، إنه كلمات الله إلى هذا العالم، فلا بد من الإجابة عن شبهات الخلق في شأنه.

ومن آخر هذه الشبه وأعجبها ما تثيره الآن أكثر دوائر الكفر بشكل مهذب أو وقح حول الوحدة القرآنية والصلة بين سور القرآن بعضها ببعض، أو آيات القرآن بعضها ببعض، ...مع أن هذا الموضوع وحدهُ هو من أعظم مظاهر الإعجاز في القرآن.))[1].

ثم يقول:ـ ((لقد حاولت في هذا التفسير أن أسد هذه الثغرة، مع اعتقادي أن أسرار الوحدة القرآنية لا يحاط بها، ولكن وإذا أصبح الكلام عن هذا الموضوع مطلبا خاصًا وعامًا حتى جعلها بعض المستشرقين مدخلًا يلج من خلاله إلى تشكيك المسلمين، أو اتهام القرآن أو اتهام علماء المسلمين بالقصور، إذ أصبح الأمر كذلك فقد أصبحت على يقين من أن هذا الموضوع لابد من تغطيته))[2].

ونظرًا لخطورة الموضوع وتناول الكثير له بالنظر والبحث، وتوجيه كثير من الافتراءات عليه، ووقوع كثير في جهل الخلط والخبط، كان لابد من دفاع صادع ووضع الحق في نصابه، ورد لكيد الزاعمين، فقد تصدى لهذا الدكتور محمد عبد الله دراز بقوله:ـ " وقبل أن نترك هذا الفصل ينبغي أن نركز بعض الجهد على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلًا عن بعض علماء المسلمين.

وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة. فعند ما لاحظ بعضهم بنظراته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة لم يرَ القرآن في جملته إلا أشتاتًا من الأفكار المتنوعة،

---

(١) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (١/ ١٨).
(٢) نفس المرجع ـ (١/ ٢٤).

عولجت بطريقة غير منظمة ودون أي ربط منطقي بينها. بينما، رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تحقيق الملل الناتج عن رتابة الأسلوب والحزن المترتب على تكرار النغمة، مما يتنافى مع المثالية في الأسلوب العربي.

وهناك فريق آخر لم يرض الوحدة الأدبية لكل سورة وهو ما يستحيل نقله في أيِّ ترجمة إلا نوعًا من التعويض لهذا النقص الجوهري في وحدة المعنى. وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين رأي وهو يهدف إلى تبرئه الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قدم كل سورة من القرآن على شكل وحدة مستقلة – أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور، إن هذه التفسيرات لا تبدو صالحة للأخذ بها إذ إن السنة والأثر الصحيح متفقان على أن السور كانت بالشكل الذي نقرؤها به اليوم وبتركيبها الحالي منذ حياة الرسول. إذن قد يرجع السبب إلى عيب أصيل لا تكاد تجدي معه التبريرات السابقة إذا كانت حقًا وحدة السور لا تعد وأن تكون سلسلة من الحروف والصوتيات تخفى تشتيتًا وتفريقًا جوهريًا في المعنى، وتترك فواصل لا يقبلها المنطق في مسيرة الأفكار وتقفز قفزات مفاجئة من السورة عند الانتقال من موضوع إلى موضوع جديد))[1].

ويذكر الشيخ سعيد حوى في كتابه "الأساس في التفسير":ـ

((إن فهم الصلة بين الآيات والسور وإبراز الوحدة القرآنية تخدم رد شبهة أن هذا القرآن لايجمع آياته في السورة الواحدة جامع ولا يجمع بين سوره رابط، وذلك لا يليق في كلام البشر فكيف بكلام رب العالمين، إنها لشبهة فظيعة جدًا، أن يحاول محاول إشعار المسلم بأن كتاب الله ينزل عن كتب البشر في هذا الشأن.[2]

ويرد على هذه الشبهة عبد الغني الراجحي بقوله:- ((إن القرآن لم ينزل موضوعيًا لأنه ليس كتابًا مؤلفا من صنع البشر، لكنه كان غيثًا يهطل على ظروف ومناسبات وأوضاع متلاحقة اقتضت أن يكون بعض إعجازه هذا الترتيب الذي

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ـ محمد عبدالله دراز – دار القلم – الكويت – ١٩٨٤م ـ (١١٨ـ١١٩).
(٢) الأساس في التفسير – سعيد حوى – (١/ ٢٧)

رتب عليه الآيات في السور بتوقيف من الذي أنزله، ولقد نزلت آياته في مدى ثلاث وعشرين سنة وبرغم هذا المدى المتطاول وبرغم ترتيبها تلاوة غير ترتيبها نزولًا لم يفتها شيء من التناسب والتناسق والإحكام والتشابه، كأنما نزلت وجبة واحدة[1].))

وبهذا نرى أن علماء التفسير قد سعوا إلى إبطال هذه الشبهة وردها... وبينوا حقد هؤلاء المستشرقين على القرآن الكريم.

المبحث الثالث : الوحدة الموضوعية بين السابقين والمعاصرين :

إن سور القرآن الكريم تتميز بالانسجام الكامل بين آياتها التي تترابط فيما بينها كأنها وحدة واحدة، وقد بدأ توضيح فكرة الوحدة الموضوعية من خلال تلك البذور التي غرسها سلفنا الصالح من العلماء والمفسرين، وهذه البذور قد نمت بمرور الزمن، وهي مازالت في طور النمو، وقد شكلت هذه البذور الخيوط الرئيسة التي نسج منها المتأخرون فكرة الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

ونحن من خلال هذا المبحث سوف نوضح جهود بعض العلماء والمفسرين القدماء والمتأخرين، في تأصيل الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم.

المطلب الأول :- الوحدة الموضوعية عند المفسرين السابقين :

لم يغفل المفسرون السابقون الوحدة الموضوعية عند تفسيرهم لسور القرآن الكريم، بل وضحوا أن السورة القرآنية تشكل وحدة واحدة لا يمكن أن تتجزأ، وكانت جهودهم هي البذور الأولى والخيوط الرئيسة التي نسج منها المتأخرون فكرة الوحدة الموضوعية في السورة وتطبيقاتها.

فنرى الإمام أبا بكر محمد بن الطيب الباقلاني[2] (٤٠٣هـ)

---

(١) المناهج الجديدة- دكتور عبدا لغني الراجحي – دار النشر مجهولة ـ ١٩

(٢) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلاني البصري، المتكلم المشهور كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيدًا اعتقاده وناصرًا طريقته، وسكن ببغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه وانتهت إليه الرياسة في مذهبه وكان موصوفًا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، توفي يوم السبت سنة ٤٠٣هـ ببغداد (وفيات الأعيان ـ ابن خلكان ـ حققه إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ (٤/ ٢٦٩-٢٧٠).

يصرح بذلك التناسق العجيب الذي يحكم أسلوب القرآن في كتابه " إعجاز القرآن " إذ قال:- (وليس ذلك في آية دون آية، أو سورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى)[١].

((والشيء الذي يذكر بالإعجاب في هذا الصدد، أنه تناول النظم كظاهرة كلية في القرآن كله، فسبق بذلك المفكرين في العصر الحديث الذين يتناولون نقدهم العمل الأدبي بوجه عام، لأن الأوصاف التي ذكرها لفكرة النظم مستنبطة من القرآن كله بوصفه وحدة متكاملة الحلقات متصلة الجوانب، فهي شائعة فيه، منبثة في تضاعيفه، تراها في السورة الواحدة.)[٢]

ونجد أن الإمام الغزالي[٣] ت٥٠٥هـ قد تناولها فكرة في كتابه "جواهر القرآن"، وعرض لسورة الفاتحة، وكيف ننظر إليها كوحدة متناسقة المعاني، متكاملة الدلالات وكان في هذا متأثرًا بأول من تكلم في هذه الفكرة وهو أبو بكر النيسابوري[٤].

---

(١) إعجاز القرآن ـ أبو بكر الباقلاني ـ شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي – مطبعة محمد صبيح- مصر- (١٩٥١م)- (٢٢٦).

(٢) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ – فتحي عامر- منشأة المعارف ـ الإسكندرية ـــ مصر –١١٧.

(٣) محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد حجة الإسلام زين الدين أبو حامد الطوسي الفقيه الشافعي(٤٥٠ – ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ – ١١١١ م) فيلسوف، متصوف، له نحو مأتي مصنف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته.

لم يكن في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الرادكاني ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين الجويني وَجدّ في الأشغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الأعيان في زمن أستاذه وصنف ولم يزل إلى حين وفاته فاشتهر اسمه وسار بذكره الركبان:

فسار به من لا يسير مشمرًا... وغنى به من لا يغني مغردا.

وناظر الكبار بحضرته، فانبهر له، وشاع أمره، فولاه النظام تدريس نظامية بغداد، فقدمها بعد الثمانين وأربع مئة، وسنه نحو الثلاثين، وأخذ في تأليف الأصول والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام، ومزال الإقدام، ولله سر في خلقه

ينظر:ـ سير أعلام النبلاء: (١٩/ ٣٢٣) ـ الوافي بالوفيات: (١/ ١١٩)ـ وفيات الأعيان:(٤/ ٢١٦).

(٤) هو:ـ محمد بن إبراهيم النيسابوري المشهور بابن المنذر ت:٣١٨هـ. "شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ٢/ ٣٠٤

ومن أول المتقدمين الذين نطقوا بالوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم الإمام فخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ.

فنحن نراه عند تفسيره لسورة المرسلات يقول:ـ (إن هذه السورة من أولها إلى آخرها مرتبة في تقريع الكفار على كفرهم وتخويفهم عليه، فهذه الآية يجب أن تكون مذكورة لهذا الغرض، وإلا لفككت السورة في نظمها وترتيبها.)[1]

وهو بذلك يؤكد الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

ولو تتبعنا مراحل الوحدة الموضوعية لوجدنا أن هذه الفكرة دارت بين العلماء أخذًا وردًا من أبي بكر النيسابوري، والغزالي، إلى الفخر الرازي...حتى وصلت إلى ابن القيم، فأخرجها إخراجًا طيبًا في تفسيره للقرآن آخذًا لها من أستاذه ابن تيمية.[2]

ويرى بعض الباحثين أن ابن القيم الجوزية ت ٧٥١هـ[3] أول القائلين بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية. فيقول:ـ "إن ابن القيم رائد المدرسة الحديثة التي تهتم بأن تقدم أمام تفسير السورة الإطار العام للأهداف السامية، التي جاءت السورة لتعالجها، وتمثل الروح الذي يسري في كيان السورة، فيربط بين أجزائها،

---

(١) مفاتيح الغيب ـ الرازي ـ(٣٠/ ٢٤٩)

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني ابن تيمية، الشيخ الإمام العالم العلامة المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام نادرة العصر ذو التصانيف والذكاء والحافظة المفرطة تقي الدين أبو العباس ابن العالم المفتي شهاب الدين ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات مؤلف " الأحكام " ولد بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وتحول به أبوه إلى دمشق سنة سبع وستين وتوفي سنة ثمان وعشرين وسبع مائة. ينظر الوافي في الوفيات: (٢/ ٢٧٥).

(٣) هو محمد بن أبي بكر الدمشقي (أبو عبدا لله، شمس الدين) ولد في دمشق سنة [٦٩١هـ-١٢٩٢م] فقيه، أصولي، مفسر، متكلم، نحوي، لازم شيخه ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق، فلما مات ابن تيمية أفرج عنه، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه، قال ابن كثير (لا أعرف في زماننا من أهل العلم أكثر عبادة منه) وكان مغرمًا بجمع الكتب فجمع مكتبة عظيمة، من تصانيفه: أعلام الموقعين، وشرح منا زل السائرين، والتفسير القيم. وكل تصانيفه مرغوب فيها. توفي سنة [٧٥١هـ-١٣٥٠م] وصلي عليه في الجامع الأموي بدمشق.. (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع: لشوكاني- ط. دار السعادة- القاهرة- [١٣٤٨هـ]- (٢/ ١٤٣). وفي معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة- ط. مؤسسة الرسالة –بيروت- [١٤١٤هـ-١٩٩٣م]- (٣/ ١٦٤).

ويجعل كل جزء فيها خادمًا للآخر ومخدومًا منه، في سبيل تحقيق الرسالة العظمى التي قصد من السورة أن تؤديها[1].

وهذا يعدُّ رأيًا مبالغًا فيه، لأن هناك من تقدم الإمام ابن القيم في التصريح بوحدة المعنى في السورة، ولكن الإمام ابن القيم كان مدركًا للفكرة، وعرضها بصورة جذابة وكأنه رائد في هذا المنهج، وظهر ذلك جليًا في المجموعة التي أطلق عليها التفسير القيم.

ومن الذين كانت لهم إسهامات بارزة في إدراك الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية الإمام إبراهيم بن عمر البقاعي، حيث كان مؤمنًا بأن القرآن كله وحدة واحدة، وأن كل سورة جزء من هذه الوحدة القرآنية العامة، وأن آيات كل سورة تتناسق وتتناسب لتكوِّن فيما بينها وحدة واحدة للسورة.

إلا أنه يؤخذ على الإمام أنه لم يربط آيات السورة بموضوعها العام، بل اكتفى بذكر الصلة بين آياتها، فكانت صلات موضعية جزئية متفرقة[2].

كما اهتم كثير من العلماء السابقين بعلم المناسبات، الذي له صلة وثيقة بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية نذكر منهم:- الإمام الزركشي" ت ٧٩٤هـ"[3] حيث خصص له فصلًا في كتابه " البرهان في علوم القرآن" تحت عنوان"معرفة المناسبات بين السور" وكذلك الإمام جلال الدين السيوطي "ت ٩١١هـ [4] "خصص لعلم المناسبات. في كتابه"الإتقان في علوم القرآن" فصلًا تحت عنوان "مناسبات الآيات والسور".

---

(١) منهج ابن القيم في التفسير ـ محمد السنباطي ـ دار القلم ـــ الكويت ـــ تاريخ ١٩٨٠م ـــ (٨٤ ـ ٩٢).

(٢) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه – زياد الدغامين ـ (٨٩).

(٣) هو:ـ محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، بدر الدين، عالم مشارك في علوم كثيرة من فقه وحديث وقراءات وعلوم قرآن، ولد بالقاهرة، شافعي، رحل في طلب العلم، إلى الشام، من جهابذة القرن الثامن، من أشهر كتبه:ـ البرهان في علوم القرآن، ت هـ٧٩٤(انظر:ـ شذرات الذهب (٦/ ٣٣٥)

(٤) هو:ـ عبد الرحمن بن محمد السيوطي ـجلال الدين، إمام حافظ مفسر مؤرخ أديب، له ما يقارب ست مائة مصنف، متفنن في علوم كثيرة، ألف في كل فنَّ، اشتهر بالتفسير والحديث، توفى سنة ٩١١هـ (ينظر:ـ شذرات الذهب لابن العماد ٨/ ٥١.).

وألف كتابًا خاصًا سماه "تناسق الدرر في تناسب السور " تحدث فيه عن أهمية علم المناسبات، وذكر وجوهًا للمناسبات بين سور القرآن الكريم.

وبهذا العرض لبعض جهود أئمة التفسير القدامى يتضح لنا اهتمامهم بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، وعلى الرغم من هذه الجهود وأصالتها وقيمتها العلمية في التعامل مع سور القرآن الكريم، فإنه لم يكن لها صدى بشكل واسع، أو رواج كبير عند العلماء والمفسرين الذين صرحوا بهذا الكلام.

ونعرض في المطلب الثاني أبرز القائلين بالوحدة الموضوعية من العلماء المتأخرين، ليكتمل بناء القول بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

المطلب الثاني :- الوحدة الموضوعية عند المفسرين المتأخرين :

قُدمت جهود كثيرة لتعميق فكرة بناء السورة على أساس من وحدة موضوعها القرآني، بالرغم من تفاوت في هذه الجهود بين المفسرين المتأخرين.وقد اجتمعت أقوال كثير من المفسرين على وحدة بناء السورة على أساس من موضوعها.

ومن ذلك ما قدمه المعلم عبد الحميد الفراهي في تفسيره " نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" حيث كان من المفسرين الرواد في تأصيل القول بالوحدة الموضوعية، وقد سماها عمود السورة الذي تدور عليه أجزاؤها المترابطة فيما بينها ترابطًا معنويًا محكمًا[1].

والحق أنه هو الذي نزَّل هذا العلم منزلته الصحيحة، وأسسه على أصول راسخة، ثم أنهج سبيله، ورسم حدوده، ونصب أعلامه، ووضع فيه كتابًا مفردًا باسم:- "دلائل النظام"[2].

وللمعلم عبد الحميد الفراهي تحليلات لطيفة في السور التي فسرها، وله آراء سديدة في الوحدة الموضوعية للقرآن[3].

---

(١) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان – عبد الحميد الفراهي – الدائرة الحميدية- الهند- ط١- ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م – (٥).

(٢) المرجع السابق ـ (٦)

(٣) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق –.صلاح الخالدي ـ (٥٧)

obeikandl.com

ونجد تأصيل القول بالوحدة الموضوعية أبرز ما يكون أيضًا عند سيد قطب في تفسيره "في ظلال القرآن" حيث كان من الرائدين في إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ويتصف تفسيره بالشمول من حيث بيانه للوحدة الموضوعية في معظم سور القرآن الكريم.وقد وصف بعض الباحثين جهوده الكبيرة في ذلك بقوله:- "لعلَّ – سيدًا- أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السور القرآنية المفردة، طالت أم قصرت، أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق أو عمقه في كتابه العظيم رحمه الله[1].وكان جهده واضحًا في تقرير الوحدة المحورية في سور القرآن، "جاء سيد ليؤكد على هذه الوحدة المحورية في السورة الواحدة، وليضع أيدينا بعد ذلك برفق وسهولة ولين على وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع[2].

عندما نقرأ تفسير الأستاذ سيد قطب الموضوعي للسور القرآنية، نجد عنده آراء ونظريات وتحليلات وتطبيقات، لا نجدها عند غيره من المفسرين السابقين والمعاصرين.

ويرجع ذلك للأسباب التي ذكرها الدكتور صلاح الخالدي في كتابه"مدخل إلى ظلال القرآن"حيث قال:ـ

" لاحظ سيد قطب الوحدة الموضوعية في القرآن، وقال بها، وحرص على بيانها في الظلال، فإن كل سورة تمثل عنده وحدة متناسقة واحدة، وإن القرآن كله يمثل وحدة موضوعية متناسقة، وقارئ الظلال يخرج بهذه النتيجة، لقد كان سيد قطب موهوبًا أولًا في القول بأن القرآن وحدة واحدة، وموهوبًا ثانيًا في القول بأن كل سورة فيه لها شخصية واحدة. وموهوبًا ثالثًا في بيان التناسق في آيات السورة كلها، ولقد وقف منفردًا بين جميع المفسرين في بيان الوحدة الموضوعية.[3]

---

(١) علوم القرآن- عدنان زرزور- المكتب الإسلامي ـ دمشق ـ ١٩٨٤م ـ (٤٣١).

(٢) المرجع السابق (٤٣١)

(٣) مدخل إلى الظلال-.صلاح عبد الفتاح الخالدي- دار المنارة- جدة ـ السعودية ـ تاريخ١٤٠٦هـ – (١١١)

ومن الذين كانت لهم جهود واضحة في محاولة إدراك الوحدة الموضوعية السيد محمد رشيد رضا حيث أفرد لهذا الموضوع بحثًا خاصًا في كتابه" الوحي المحمدي "، وكذلك تحدث عن هذا الموضوع في تفسيره "المنار" بقوله:-

((من نظر في ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة، ومن حكمته أن في ذلك عونًا على تلاوته وحفظه... ولكنَّ في كل قسم من الطول والمئين والمفصل تقديمًا لسورة قصيرة على سورة أطول منها، ومن حكمة ذلك أنه قد روعي التناسب في معاني السور مع التناسب في السور، أي: مقدار الطول والقصر[1].))

ونجد الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن" كان من أقدر من تحدث عن هذه الفكرة، وتعمق فيها مع ربطها ربطًا محكمًا بالكلام عن إعجاز القرآن.

حيث يقول ((وإنما اطرد ذلك القرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الأعجاز من الصوت في الحرف إلى الحرف في الكلمة إلى الكلمة في الجملة حتى يكون الأمر مقدرًا على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديرًا يطابق وضعها وقواها، وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قبل للناس به ولم يتهيأ إلا في هذه العربية على طريق المعجزة، التي لا تكون معجزة حتى تخرق العادة...:- إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبارها من أصواتها ومخارجها وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل.))[2]

ونلاحظ الصعيدي تناول هذه الفكرة بوضوح، وذلك في كتابه "النظم الفني في القرآن" الذي نجد فيه الرد على المستشرقين الطاعنين في القرآن، بأنه مفكك الأجزاء سيء الترتيب مشتت المعاني ليس فيه وحدة للموضوع ولا يتبع منهج التأليف

---

(١) المنار والأزهر- محمد رشيد رضا- مطبعة المنار- القاهرة- تاريخ ١٣٥٢هـ - (٧/ ٢٨٧)

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية- مصطفى صادق الرافعي- المكتبة التجارية الكبرى- مصر- ط٨- ١٣٨٩هـ - (٢٧٠)

العلمي أو الفني وذلك بعرضه للموضوع ومناقشته وتحليله وتدوين الملاحظات، ثم نجده يؤكد على الوحدة الموضوعية في أثناء تفسيره للسور القرآنية.

وكذلك نجد ممن عرض لهذا الموضوع بالبحث والدراسة محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم" وقد أفرد له الجزء الأكبر منه حيث يقول:-((إنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضًا واحدًا نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي نرى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى. بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول "كلمة" ساق الحديث إليها:- وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء وجزء منه – وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها إلا بعد أن يحكم النظر في السور كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها، على وجه يكون معاونًا له على السير في تلك التفاصيل عن بينه))[1]. وممن أسهم في محاولة إدراك الوحدة الموضوعية للسورة الشيخ محمد الغزالي حيث أصدر ثلاثة كتب في ذلك تحت عنوان"التفسير الموضوعي للقرآن" استعرض فيها سور القرآن كلها، وأكد أن للسورة محورًا عامًا وموضوعًا كليًا تدور عليه، حيث يقول:ـ (لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها، وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيرة، يعرف ذلك من قرأ كتابه "النبأ العظيم" وهو أول تفسير لسورة كاملة فيما أعتقد)[2] ومن الذين اعتنوا بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية ابن شهيد كمال الخطيب، حيث ألف كتابًا سماه "نظرة العجلان في أغراض القرآن بمناسبات آياته ووحدة الموضوع في سوره".

---

(١) النبأ العظيم- محمد عبد الله دراز ـ دار القلم ـ الكويت ـ ١٩٨٤م ـ (١٥٣)

(٢) الشيخ محمد الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث ـ.مسعود فلوسي ـ دار الوفاء ـ دار الصحوة بمصر ـ ط١ ـ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م ـ (١١٤).

وذكر أن السورة الواحدة تتضمن ثلاث غايات:-

موضوع تدور حوله.

مؤمن يتحدث إليه بما فيه هدايته.

مقتضى حال يدور بين أسباب النزول وداعية القول.

وذكر أن المعاني بين آية وآية يتمم بعضها بعضًا بحسب الغايات السابقة، ولا ينساق الحديث مع الاستطراد إلا بمقدار القبول في حدوده من مقتضى القول وأساليب البيان والبلاغة، وفي هذا ما يكشف عن وحدة الموضوع في السورة وانكشافها في القرآن جملة بأغراض محدودة واضحة مفصلة تسلسل بين آية وآية كما يحكم الصلة بين كلمة وكلمة، وتجلى ما يغمض لأول وهلة من تناسب الآيات في السورة الواحدة أو يبدو في كلمات من آية تنتقل من معنى لآخر تدق بينهما المناسبة، وهي تجري بما يلاءم الأوضاع النفسية والحكمة الهادية والبلاغة العربية أدق الملا ءمة، وللقرآن الكريم في ذلك سبيله المعجز وبيانه المحكم وهو للعالمين هدى ورحمة.

ولقد تناول موضوع الوحدة الموضوعية في القرآن بحثًا وتدقيقًا الدكتور محمد محمود حجازي وأضاف بذلك إضافة جيدة أخذت مكانها في المكتبة القرآنية، وأفادت الدراسات القرآنية. وهو يقول:-

اقتضت حكمة الله الخبير البصير أن يكون كتابه العزيز المقروء في المصحف، وفق كتابه المكنون في اللوح المحفوظ وإن كان النزول على خلاف ذلك. وكان القرآن المجيد في ترتيب المصحف على سور، كل سورة مكونة من آيات، وأقصر السور ما اشتملت على ثلاث آيات، وأطولها يزيد على الثمانين بعد المائتين، واقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تكون أغلب السور قد جمعت بين آيات مختلفة النزول زمانًا ومكانًا، ولكن لأمر ما وسر دقيق جمعت في سورة واحدة، تهدف إلى غرض واحد له في الغالب مقدمات ونتائج.

وهذا موضوع دقيق المأخذ، صعب المسلك، لا يناله إلا من أشرب قلبه حب القرآن ونأى بنفسه عن كل ما يخالفه، ... ثم يصل إلى النتيجة الآتية:-

obeikandl.com

١ـ السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد يستتبع أغراضًا مختلفة غالبًا.

٢ـ السورة الواحدة لها طابع خاص في اللفظ والسياق والفواصل وختام الآيات، ولها في الوصول إلى هدفها طرق مختلفة.

٣ـ كل موضوع ذكر في السورة سواء كان قصة أو غيرها فهو مناسب كل المناسبة للسورة ولابد منه.

٤ـ إذا كرر الموضوع الواحد فهو في كل سورة يناسبها شكلًا وموضوعًا.

٥ـ لم تكرر القصة في سورة واحدة أبدًا[١].

ومن الذين استوعبوا هذه الفكرة واعتنوا بها الشيخ سعيد حوى في كتابه" الأساس في التفسير" حيث كانت الوحدة الموضوعية هي الميزة الرئيسة في تفسيره حيث يقول:ـ " ورأيتني بعد استعراضات كثيرة لكتاب الله قد عثرت فعلًا على مفتاح من مفاتيح الوحدة القرآنية، وتفتحت لدي من آفاق الفهم معان كثيرة بخصوص السياق العام للقرآن، والسياق الخاص داخل السورة الواحدة، وكلما سرت في عرض القرآن الكريم تبين لي من الأدلة على سلامة سيري الكثير الكثير... ويقول:-

فلقد دندن علماؤنا حو ل هذا الموضوع ولم يستوعبوه، واستوعبته بفضل الله، وأشاروا إليه ولم يفصلوا فيه، ولقد فصلت فيه تفصيلًا استوعب الآيات في السورة الواحدة والسور في القرآن كله على ضوء نظرية شاملة، أثبت البحث صحتها، وهي تعطي الجواب على كثير من الأمور مما له صلة بوحدة السورة، ووحدة المجموعة القرآنية، ووحدة القسم القرآني، ثم في الوحدة القرآنية كلها.

وبدون هذه النظرية فإن كثيرًا من الصلات التي تحدث عنها المتحدثون، إنما تتحقق بنوع من الاستكراه، ولئن توسعت في هذا الشأن بما لم يتوسع به أحد، فلأنه كما ذكرت احتياج العصر وضرورته، وأما الماضون فلم يكونوا يستشعرون ضرورته، فاكتفوا بالتلميح إليه مع اعتقادهم أنه موجود[٢].

---

(١) ينظر:ـ الوحدة الموضوعية ـ محمد محمود حجازي ـ (٥٢ـ٥٣)

(٢) الأساس في التفسير ـ سعيد حوى ـ (١/ ٢٣)

obeikandl.com

كما يبين أن الخاصية الأولى لتفسيره، بل والميزة الرئيسة أنه قدم لأول مرة – على حد قوله – نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية، وهو موضوع حاوله كثيرون، وألفوا فيه الكتب ووصلوا فيه إلى أشياء كثيرة، ولكن أكثر ما اشتغلوا فيه، كان يدور إما حول مناسبة الآيات في السورة الواحدة، وإما مناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة، ولم يزيدوا على ذلك – فيما أعلم- هذا مع ملاحظة أن الموضوع الأول نادرًا من استوعبه والتزم به في تفسير كامل للقرآن، وإذا التزم به فلم يكن ذلك على ضوء نظرية شاملة تحتوى مفاتيح الوحدة القرآنية[1].

والدكتور عبد الرحمن حبنكة في كتابه"تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع" والدكتور عمر يحيى في تفسير "سورة الأحزاب "، والدكتور مصطفى مسلم في كتابه" مباحث في التفسير الموضوعي"، حيث قدم مثالًا تطبيقيًا في تفسير السورة تفسيرًا موضوعيًا تحت عنوان "القيم في ضوء سورة الكهف" وعرضها على أساس وحدة الموضوع في السورة القرآنية.

والدكتور صلاح الخالدي في كتابه " التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق " وقد قدم فيه دراسة تطبيقية على الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، واختار سورة محمد صلى الله عليه وسلم وفسر السورة على أساس من الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية. وبهذا العرض الموجز لبعض أئمة التفسير المعاصرين، نرى كيف أصبحت الوحدة الموضوعية أساسًا في التفسير للقرآن الكريم، بل أصبحت منهجًا عند بعض المفسرين المتأخرين وأفردوا لها المصنفات والمؤلفات في أثناء تفسيرهم لكتاب الله العزيز.وبهذا يكتمل بنا القول في الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

(١) نفس المرجع ـ (١/ ٢١)

obeikandl.com